الصبي والصبية والجدار

ناقشت الندوة قصة الأطفال "الصبي والصبية والجدار" للأديب السويدي أولف ستارك، ورسوم انّا هيجلند، والّتي صدرت باللغتين العربية والسويدية، عن دار المنى في ستوكهولم.

رفيقة عثمان:

المضامين التربويّة السلبيَّة السائدة في القصّة

مقدَّمة

استلهم الكاتب السويدي قصَّته من رحلته إلى فلسطين، كما ذُكر في أوَّل صفحات القصَّة، وكانت فكرته جيِّدة للتطرُّق إلى موضوع الجدار الإسمنتي الفاصل، والعازل، فكتب قصَّة الصبي، والصبيَّة، والجدار.

لقد عرض الكاتب السويدي بعض المضامين التربويَّة الإيجابيَّة المختلفة، الّتي تهدف إلى التحدِّي، والمغامرة، والصمود، والإصرار على عبور الحاجز العسكري بأي ثمن، دون أن يتنبَّه إلى الحقائق المُؤلِمة على أرض الواقع، ففي القصة الكثير من الخيال، بحيث صوَّر شخصيَّة البطولة للصبي أدهم، الذي ابتدع خِططًا ملتوية للتحايل، وعبور الحاجز ذهابًا، وإيابًا.

تهدف القصَّة، عادةً، إلى غرس مفاهيم وقيم تربويَّة؛ ليحتذي بها الأطفال. لا أنكر بأن الكاتب السويدي أبرز قِيَمًا تربويَّةً إيجابيّةً، ولكنه لم يُجيِّرها في المكان المناسب، خصوصًا عندما جعل الصبي أدهم يُفكِّر بطريقة إبداعيَّة؛ لإيجاد الحلول المناسبة، واختراع الأدوات المختلفة للوصول إلى الحل الأمثل، والهدف المنشود. وتضمَّنت القصَّة مضامين إيجابيَّة أخرى مثل: الحنين إلى الوطن، والممتلكات، والعودة، وأشجار الزيتون، والبرتقال، والتشبُّث بالأمل، وغرس الأرض، والجذور القويَّة، ولكن الكاتب لم يُحدِّد المكان الذي يقبع فيه الجدار، إلا إنه كانت بعض التلميحات بسيطة توحي بقصده للجدار الفاصل في فلسطين.

التزم الكاتب الحياد والمُسالمة في سرد القصَّة، ويُظهر السرد عدم معرفة الكاتب المتعمِّقة بما يدور من أحداث مؤلمة، والّتي يتعرض لها الأطفال خصوصًا في بلادنا.

يبدو لي أن الكاتب السويدي أولف ستارك، لم يُدرك بعد خطورة الحاجز العسكري، وخصوصًا عندما خاض التجربة، وعبره بوساطة بطاقة شخصيَّة مهمَّة جدًّا – V.I.P – ، وليس بالطريقة الشاقَّة الّتي يعبرها الآخرون من عامَّة الشعب.

سأتطرَّق إلى المضامين التربويّة السلبيّة السائدة في القصَّة:

ابتدع الكاتب، أولف ستارك، بعض الحلول لاختراق الحاجز، والجدار، فلم تكن هذه الحلول مُوَفَّقة بقدر اختياره للموضوع، وتعتبر معظم هذه الحلول غير تربويّة من وِجهة نظري، فهي تغرس في نفوس الأطفال عادات سيِّئة، وغير مُرضِية، لا أرضاها لتنشئة الأبناء في بلادي.

كانت الحلول سلبيَّة، واللجوء إلى الأساليب الملتوية، وغير السليمة، الّتي تؤدي إلى وقوع الطفل في أخطار لا تُحمد عقباها، أو حتَّى إلى تعرّض حياته إلى الموت غالبًا. كما هو معلوم لدينا بأن الجدار العازل في فلسطين مُحاط بالأسلاك الكهربائيَّة الشائكة غالبًا، ومحاط بالجنود المُسلَّحين، ودوريات الحراسة اليوميَّة، وعدسات الكاميرات المُراقبة، والمُصوَّبة نحوه، وغيرها.

بدأت الرسالة التربويَّة الأولى، عندما صنع الصبي أدهم سلَّمًا عاليًا للقفز إلى ما وراء الجدران؛ أرى أنَّ هذه الفعاليَّة تُعرِّض الأطفال للخطر، خصوصًا عندما يقومون بالتقليد، حتَّى لو لم يتواجد الجنود حول الجدار،

فماذا يحصل؟ وما هو المصير، لو قلَّدها الأطفال الفلسطينيُّون أمام عدسات المُراقبة؟!

ميزة الاندفاع، والتسرّع، قبل اتخاذ القرار، كما فعل الصبي أدهم عندما قرَّر عبور الحاجز، وقال لأخته: "سأذهب إلى البرتقال"، قالت له: " هذا مستحيل"، أجابها: "لا يهمُّني".

إن هذا التصرُّف يدل على عدم التفكير مسبقًا بعواقب الأمور، ونتائجها، هذا التصرف، لا يساهم في تنشئة صحيحة لأبنائنا.

ظهر، أيضًا، سلوك صبياني وعشوائي آخر، عندما اختبأ أدهم خلف الأشجار، كي ينصب كمينًا للشاحنة الّتي ينوي القفز إليها، ويضع غصن شجرة في الشارع، ليُعرقل سيرها، كما ورد في الصفحة (19).

يُعتبر قفْز أدهم، وصعوده، إلى الشاحنة المحمَّلة بالقرنبيط، كما ورد في الصفحة (21)، مُخاطرةً كبرى، والصدفة حمته من الموت.

عندما اختبأ أدهم خلف رؤوس القرنبيط، كما ورد في الصفحة (23)، "اختبأ الصبي خلف رؤوس القرنبيط تحت القماش المُشمَّع". تُذكِّرني هذه القصَّة بقصَّة الكاتب الفلسطيني غسَّان كنفاني (رجال في الشمس)، الفرق والاختلاف هنا صبيان تحت القماش المُشَمَّع.

عندما وقفت الشاحنة، وسأل الحارس السائق: ماذا لديك هنا؟ أليست هذه الفعلة تشير إلى المغامرة، والمُخاطرة، الّتي من الممكن أن

توقعا الصبي في مأزق لا تحمَد عُقباه؟ ألم يتوقَّع الكاتب السويدي عكس النتيجة الّتي تمنَّاها؟ ألم يُفكِّر الكاتب في مشاعر الطفل أثناء توقيف السائق، وتفتيشه؟ ماذا لو طالت مُدَّة التفتيش؟ هل سيظل الطفل على قيد الحياة؟ أليست هذه مخاطرة ومُجازفة، تُعرِّض الأطفال للاختناق والموت قبل أن يكتشفه الحارس؟! ولو فرضنا أنَّ الحارس اكتشف أمر اختبائه، فهل يرحمه؟!

استخدم الكاتب شخصيَّة الكلب الأمين، لإنقاذ أدهم من المأزق، وتخليصه من الحارس، أثناء اختباء أدهم في الشاحنة، وصدر صوت عطسته، واقترب اكتشاف وجوده، إلا أن الكلب مطرود سرق قبَّعة الحارس، كما يبدو في الصفحتين (25و26). ويبدو أنَّ الكاتب السويدي مستر ستارك، لم يعرف حقيقة الأمر في الواقع عند مرور الحاجز، فالكلب مطرود الشريد لا يساوي شيئًا أمام الكلاب المُدرَّبة، والّتي تشمّ الرائحة من آلاف الأميال، وتنجح في الكشف عمَّا يعجز عن كشفه الحارس البشري.

رسالة تربويَّة غير سليمة، أوردها الكاتب، وبعيدة عن الحقيقة الّتي نعرفها عن المعاناة الّتي يواجهها المّارون أثناء عبورهم الحاجز، فهي لا تعكس الحقيقة، عندما صوَّر بساطة العبور، كما ورد في الصفحة (32):

"عاد أدهم ليعبر الحاجز، هذه المرَّة ليس من الصعب العبور... يتركه الحارس يمر دون عرقلة، والشيء الوحيد الذي يقوله له هو أين كنت؟".

صوَّر الكاتب صورة القائمين على تفتيش المَّارين، بالحرَّاس، وليس بالجنود، وهذه صورة مُبَسَّطة جدًّا لا تمتّ إلى الحقيقة بشيء. تختلف وظيفة الحارس عن الجندي، أو العسكري، ولم يُميِّز الكاتب الفرق الشاسع بينهما.

ابتدع الكاتب حيلة أُخرى سلبيَّة؛ ليساعد الصبي أدهم على مرور الحاجز عند العودة، عندما استخدم المرآة العاكسة؛ ليبهر عيني الجندي، ويمر بسهولة، دون أن يعلم بأنها تُعتبر أداة خطرة من السلاح الأبيض عندنا. يبدو لي بأن هذه الحيلة لا تساهم في خلق شخصيَّة قويَّة، تحترم تفكير وكيان الأطفال، لأن الواقع الحقيقي مختلف كلّ الاختلاف عن الخيال السويدي.

رسالة تربويَّة سلبيَّة أخرى، عندما عاد أدهم، وسألته والدته: "أين كنت طوال اليوم؟! لم يخبرها بذلك. لم يقل سوى: (في الخارج)". يبدو لي بأنَّ هذه الرسالة ليست تربويَّة، لأنها تغرس صفة الكذب، وعدم الصدق مع الأهل. إن الأساليب التربويَّة كافة تنادي بالمُصارحة بين الآباء، والأبناء، وتنمية صفة الصدق عند الأبناء. سؤال يطرح نفسه بنفسه: هل هذا ما يغرسه السويديون في نفوس أبنائهم؟! لا أظنُّ ذلك أبدًا.

الخلاصة

نهاية القصَّة توحي بالأمل، وترمي إلى التشبُّث به. ولم تساهم القصّة في عرض حلول جذريَّة، أو الحثّ على التفكير السليم للوصول إلى الأهداف الّتي ترضي نفسيَّة الأطفال في فلسطين. ربَّما قصد الكاتب أن يرمي بالأفكار السلميّة لإرضاء الأطراف كافّة، دون أن يذكر نوعًا واحدًا من أطراف النزاع، ولم يوضِّح سبب وجود الجدار.

ربَّما كانت نيَّة الكاتب سليمة، ولكن للأسف، فمضامين هذه القصَّة جميعًا لا تتلاءم مع ثقافة وحضارة الأطفال الفلسطينيين، الذين اجتازوا مراحل كثيرة من حياتهم الاجتماعيَّة، والسياسيَّة، وجعلت منهم رجالًا قبل الموعد.

يحتاج أطفالنا في فلسطين، وفي العالم العربي، إلى غرس مفاهيم صادقة، حقيقيَّة، نابعة من قلوب مربِّين، وآباء صادقين واعين لمصير أبنائهم، وبحاجة إلى مؤلِّفين، وكتَّاب، من داخل الوطن، ليعكسوا همومه وآلامه وآماله بصدق، من عمق الأحداث، دون الاعتماد على الكتَّاب الأجانب والترجمة؛ ليعبِّروا عن همومنا، وآمالنا، وآلامنا، وطموحاتنا، وليصوِّروا الأحداث الواقعة في بلادنا، ونقلها بصدق إلى أبنائنا، بطريقة تحترم قدراتهم وتفكيرهم؛ للارتقاء بفكرهم وشعورهم إلى أعلى درجة ممكنة.

ليس كلّ ما هو أجنبي، يعني أنه الأفضل. أُؤمن بوجود مؤلِّفين محليِّين، ذوي كفاءات عالية، بإمكانهم توظيفها لإبداعات جديدة، لمُواكبة التطوُّرات والإبداعات الّتي تتناغم مضامينها مع الثقافة المُعاصرة، والحضارة العربيَّة؛ لِتساهم في تنشئة سليمة، والارتقاء بأطفالنا في العالم العربي والفلسطيني.

جميل السلحوت:

اختلاف الثقافات في "الصبي والصبية والجدار"

عندما زار المبدعان السويديان أولف ستارك، وأنّا هيجلند فلسطين قبل حوالي ثلاث سنوات، التقيتهما أنا والأديب محمود شقير، والشاعر الدكتور وائل أبو عرفة في القدس، وكان بصحبتهما السيدة منى زريقات صاحبة دار المنى للنشر والطباعة، والّتي كان لها الفضل في ترجمة وطباعة مئات مؤلفات الأطفال لكتاب سويديين، واسكندنافيين، وأوروبيين، إلى العربية، وقامت مؤسسة"دياكونيا" السويدية بتوزيعها مجانًا في بعض الدول العربية، ومنها فلسطين المحتلة.

وقد شرحنا للوفد الزائر معاناة شعبنا، خصوصًا في القدس، من الاحتلال، وأوضحنا لهم التأثيرات الكارثية لجدار التوسع الإسرائيلي على شعبنا، وعلى قدسنا أيضًا.

وقد تحلّى الضيوف بقدرة واضحة على الاستماع والفهم بل والتعاطف من خلال تعبيرات وجوههم وحركات عيونهم. وبالتأكيد فإن قصة الأطفال هذه جاءت كنتاج لهذه الزيارة، كما جاء في صفحة الكتاب الأولى.

تنويه

على الرغم من أن الناشر والمبدعين صدّرا الكتاب بعبارة: "الكتاب مستلهم من رحلة أولف ستارك وأنّا هيجلند الى فلسطين"، إلا أنه لم يرد اسم فلسطين، أو أيّ مكان في النص، ولولا هذا التصدير، وبعض الرسومات لجدار التوسع الإسرائيلي الّتي وردت في القصة، دون إشارة إلى مكان الجدار أو تسميته، لما استطاع القارئ أن يعرف عن أيّ جدار يتكلّم الكاتب. لكن الجدار محفور في عقلية وذاكرة كلّ فلسطيني نظرًا لآثاره التدميرية عليه، وأيّ جدار رسمت الرسامة، ولا أعرف إن كان التصدير الذي جاء في الطبعة العربية قد ورد في الطبعة السويدية أيضًا، وأشك إن كان الطفل السويدي، والأوروبي، وحتى البالغين، إن كانوا سيعلمون عن أيّ جدار تتكلّم القصة.

الأسلوب واللغة

استعمل الكاتب لغة أدبية جميلة، قد تصلح للفتيان والبالغين أكثر مما هي للأطفال، وإن كان هناك بعض التحفظ على مدى صحة الترجمة

العربية، وقد ترك الكاتب أبطال قصته، وهم أطفال، يتحركون بمفردهم، ويجربون كيفية اختراق هذا الجدار، إلى أن استطاع الطفل "أدهم" عبور الجدار من خلال الاختباء بين القرنبيط المنقول داخل شاحنة، ومغطى بـ"مشمع"، فقطف برتقالّتين من حديقة منزل أسرته الذي بقي داخل الجدار، وما عاد مالكوه يستطيعون الوصول إليه، وعاد بهما إلى أسرته حيث تنتظره شقيقته سلافة، المصابة بوهن ومرض في ساقيها، ولما كان أدهم قد عمل "عربة" مما تيسر له من مواد، ليساعد شقيقته على الحركة، فإن شقيقته كانت تحاول كتابة الشعر، إلى أن استطاعت في نهاية القصة أن تكتب قصيدة.

الجدار المرتفع لم يمنع البشر، بمن فيهم الأطفال، من العودة إلى بيوتهم، إلا أن ضرره تعدى ذلك إلى الحيوانات أيضًا، فقد منع كلب الأسرة (مطرود) من العودة أيضًا. ووصل ضرره إلى الطبيعة، أيضًا، بمنع أشعة الشمس من الوصول إلى البيوت والحدائق القريبة منه، ويبدو أن الشمس هنا ترمز للحرية.

وتضع القصة حلًّا لقضية الخلاص من الجدار، يتمثل بزرع البرتقال قريبًا منه، فربما أشجار البرتقال عندما تنمو وتكبر ستهدمه، وهذا ما لم يقله الكاتب مباشرة. وأعتقد أنه يعني بذلك أن تحقيق السلام هو الكفيل بهدم الجدار.

ويلاحظ أن الكاتب قد دخل إلى نفسية المتضررين من الجدار، وتجلى ذلك بقوله إنهم نسوا ضحكتهم الجميلة خلف الجدار، وعندما حاولوا الضحك، بعد أن عزلهم الجدار عن منزلهم، كان ضحكهم غير واضح، بحيث أن الأمّ حسبت أطفالها مصابين بالسعال عندما سمعتهم يضحكون.

وردت في القصة معلومتان خاطئتان هما: إن الكلب يلهث من التعب، والصحيح أن اللّهث صفة دائمة للكلاب. والثانية هي أن الكلب حرك ذيله فرحًا، والصحيح أن الكلاب تحرك ذيولها عندما تغضب، والقطط هي الّتي تحرك ذيولها عند الفرح.

ويتجلى اختلاف الثقافات في هذه القصة، في أكثر من جانب، منها قضية الدور الذي أنيط بالكلب، ونظرة الكاتب إلى الجدار كانت نظرة محايدة تمامًا، مع أن القارئ لا يحتاج إلى ذكاء حتى يعرف موقف الكاتب المناهض لهكذا جدار.

الرسومات

جزء منها لم يكن موفقًا، فرسم البيت هو لبيت أوروبي، وليس لبيت فلسطيني، ووجوه الأطفال توحي إلى الناظر إليها أنها وجوه بالغين، ولم تكن براءة الأطفال ووسامتهم ظاهرة في الرسومات أيضًا، كما أن رسمًا للكلب في إحدى الصفحات ظهر فيه كالفأر.

وفي النقاش حول القصة، أشاد بها الأديب إبراهيم جوهر، واعتبرها أنموذجًا راقيًا لأدب الأطفال. أما الروائية ديمة السمان، فقد تطرقت إلى اختلاف الثقافات في القصة. في حين اعتبرها خليل سموم وسمير الجندي إبداعًا متميزًا.

شارك في النقاش أيضًا: د. إسراء أبو عياش، وجمعة السمان، ونزهة أبو غوش، ونسب أديب حسين، ومحمد موسى سويلم.

(القدس 16/ 6/ 2011)